

الفصل الثالث

في طور البلوغ

في ربيع عام ١٩٨٤م تخرجت أنا ومنيرة وباسمة في المدرسة الثانوية، وهو حدث يحدد الوقت الذي يفترض منا فيه أن نصبح راشدات، ونتحمل مسؤولياتنا بوصفنا فتيات ناضجات، أما أختي سميرة فقد تخرجت قبلي بعامين، وتزوجت، وأنجبت طفلاً ذكراً أسمته (أحمد)، تيمناً بوالد زوجها، وقطعت باسمه علاقتها بعادل، فقد أخبرته منذ البداية بأن أباهما اتخذ ترتيبات لتزويجها من أحد أبناء عمها، لكن بدا ذلك من أحداث المستقبل البعيد، لذا لم يعير الأمر اهتماماً كبيراً، والآن وبعد أن تخرجت باسمه حان الوقت لأن يفي أبوها بوعده. كان عادل وباسمة حزينين جداً، لكن لم تجرؤ باسمه على إخبار أبيها بعدم رغبتها في الزواج من ابن عمها، ولأنها أصبحت الآن مخطوبة رسمياً، لم تستطع مغادرة المنزل للقاء عادل، وأخبرته بأن علاقتها قد انتهت.

«أنا أسفة! لكن علي أن أجهز نفسي لعرسي».

عندما أقنعت باسمه عادل أن علاقتها انتهت فعلاً، غادر عادل ولم يرها مجدداً، وبينما كنت أمشي مع باسمه للبيت بدأت فجأة بالبكاء.

«فدوى، أنا لا أحب ابن عمي نهائياً! كيف سأقدر على العيش معه؟».

حاولت أن أخفف عنها قدر المستطاع، لكن لم يكن لدي أدنى فكرة عما سأقول لها، إذ كيف يمكن لأحد أن يعيش حياته كلها مع شخص لا يحبه؟

استمرت علاقتي بأحمد، لكنه انضم للجيش الأردني لينهي عامي الخدمة العسكرية الإلزامية، وكان عليه التمرکز في منطقة الأزرق في شمال غربي عمان؛ لذلك نادراً ما كنا نرى بعضنا.

في ذلك الوقت تقريباً تقاعد أبي عن عمله، فهو مسؤول ربي لدى الحكومة الأردنية، ولكنه كان يمتلك بيتاً في تلك القرية، وبقي على نظامه يأتي إلى عمان كل يوم خميس؛ ونتيجة لذلك لم يتوافر مع والدي المال الكافي لإرسالني إلى كلية الأعمال، كما خططت أنا، وكان علي أن

أجد عملاً؛ لأنه بحسب اعتقاد والدي لم يكن هناك أمل بأن أتزوج، فقررت أن أنضم لمركز لأحصل على شهادة للعمل سكرتيرة، انضمت منيرة للمركز نفسه، وكنت أذهب للمركز كل يوم، لكنني كنت دائماً أفكر في أحمد في أثناء غيابه.

قررت أن أزور أحمد في قاعدة التدريب، لكن كان علي أولاً أن أجد طريقة لأصل إلى هناك؛ لذلك مررت بجانب السوبرماركت الذي اعتاد أن يقف عنده أحمد مع صديقه بلال. وجدت بلال هناك، فحركت شفتي مشيرة إليه بأنني أرغب في التحدث معه، فتبعني إلى مكان منعزل أخبرته فيه بأنني أرغب في رؤية أحمد. بدا بلال مذهولاً.

«لكن أحمد في المعسكر حالياً، والمعسكر بعيد عن العاصمة. وفوق ذلك، تمنع الفتيات من زيارة المعسكر».

لم أَدع ذلك يردعني، فرجوت بلال، وعيناني تملؤهما الدموع بأن يأخذني إلى هناك، وأخبرته، كم أنا مشتاقة إلى أحمد.

«حسناً يا فدوى. كوني جاهزة غداً عند الساعة ١٠:٣٠ صباحاً».

ذهبت أنا ومنيرة إلى المركز عند الساعة ٨:٠٠ صباحاً كالمعتاد. كانت معلمتنا، الأنسة وفاء، تعرف مسبقاً عني وعن أحمد من أخيها الذي كان صديقاً لأحمد؛ لذلك أخبرتها بأننا ذاهبتان لرؤية أحمد. ففي حال أتى أحد من عائلتي للمركز ليسأل عنا سوف تعرف معلمتي ماذا ستقول له. لم يكن لدى أحد منا سيارة، لذلك اضطررنا إلى أن نجمع مالنا، ونستأجر سيارة أجرة تقطع بنا مسافة ساعة ونصف الساعة إلى هناك. أقلتنا السيارة الأجرة إلى مكان يقع خارج معسكر التدريب، حيث لا يوجد بيوت ولا محال تجارية. وطلب بلال من السائق أن ينتظرنا؛ لأنه من المستحيل العثور على سيارة أجرة أخرى في تلك المنطقة، التقينا حارسين عند البوابة، وسألانا عن سبب وجودنا هنا، فأجبناهما بأننا أتينا لرؤية أحمد. ناقش الحارسان الأمر بينهما بضع دقائق، ثم وافقا، وسمحا لأحمد بأن يغادر المعسكر ليلتقينا مدة ٣٠ دقيقة. وعندما خرج أحمد لم يكن يعلم أننا في انتظاره، نظر إلي بينما كنت واقفة خارج البوابة، وبدأ بالبكاء.

سألته: «لماذا تبكي؟».

فأجاب بحذر: «لم أعرف أنك تحبينني، لدرجة أن تسافري كل هذه المسافة لتريني بضع دقائق فقط».

«لأنك تقيم في معسكر للتدريب لم أكن متأكدة من أنهم يسمحون لكم بسماع الموسيقى، أو تناول طعام جيد؛ لذلك لم أحضر الكثير معي، لكني كتبت لك كلمات أغنية (بعيد عنك حياتي عذاب) لأم كلثوم.

رجعت إلى البيت أطير فرحاً، وأمضيت الأسابيع القليلة المقبلة أتذكر لقاءنا السري خارج معسكر التدريب، ولم أنتبه كثيراً لواجباتي المدرسية. فقد كنت أشعر بالسأم الشديد من تعلم السكيرتارية، وكنت في حاجة لشيء يلهيني عن التفكير في أحمد طوال الوقت. وفي أحد الأيام جاءت مجموعة من ضباط الشرطة إلى المركز ليتحدثوا معنا، ما جعلنا جميعاً ننظر لبعضنا، ونهمس بقلق نتساءل عما يريدونه منا؟ ثم وقف رجل أمامنا في الصف، وعرض علينا أن ننضم للعمل في قوات الشرطة الأردنية، فعندئذ سنكون أول مجموعة من النساء يصبحن شرطيات.

أثار ذلك اهتمامي، ما جعلني أقنع منيرة وصديقة أخرى لي تعرفت إليها في المركز بالذهاب معي للتجول في مخفر الشرطة. وفي أول زيارة لنا للمخفر أعطونا محاضرة قصيرة عن طريقة دراسة مواقع الجريمة، ثم أخذونا في جولة، وأرونا دلائل من جرائم حقيقية موضوعة في أكياس بلاستيك ومعلقة على الحائط. لقد أرادوا معرفة ردة فعلنا، عندما نرى السكاكين المملخة بالدماء وأشياء أخرى منفرة. وأخبرونا بكيفية حل جرائم حديثة، وجعلونا نلعب أدواراً؛ ليروا كيف نساعد ضحايا الجرائم أو شخصاً أصيب في حادثة سيارة. رأيت منيرة الدم، وكان سيغمى عليها؛ لذلك ذهبت لتقف في الرواق، وتشرب كأساً من الماء.

بعد هذه الزيارة الأولية صممت على الانضمام للشرطة. كنت أحضر للمركز في الصباح، ثم يأتي ضابطا شرطة ليقبلاني أنا وبعض زميلاتي إلى المخفر لتدريب، وهناك بدأت أتعلم فن الدفاع عن النفس، وأصبحت ماهرة في تنفيذ تمرين الضغط وتمارين أخرى دون أن أدع حجابي يسقط. إلا أنني كنت قلقة قليلاً؛ لأن أحد إخواني كان يأتي للمركز ليطمئن علي، بينما أكون في مخفر الشرطة، لكن ذلك لم يردعني عن مواصلة التدريب.

وبعد بضعة أسابيع من التدريب كنت أنا وصديقة لي اسمها (رندة) نمشي في الشارع بعد أن غادرنا المخفر، لكن ما لبثنا أن رأينا رجلين يتشاجران على موقف سيارة، نظرنا لبعضنا متحمستين لأول فرصة لاختبار مهاراتنا الجديدة، بوصفنا شرطيتين، لكننا كنا قلقتين

قليلاً؛ لأنهما كانا رجلين، ومن المحتمل ألا يستجيبا لامرأتين تأمرانهما بأن يوقفا المشاجرة. كنا نرتدي ثياباً مدنية، لكن كانت معنا هويات الشرطة التي أصدرت لنا حديثاً. دوننا من الرجلين محاولتين قدر المستطاع أن نبدوا مخيفتين.

«ما الذي يجري هنا؟»

«من أنتم؟»

أخرجنا هويات الشرطة بسرعة ما جعل نبرتهما تتغير كالسحر، وما لبث كلاهما أن أصبحا هادئين وبدأا يعتذران محاولين أن يثبتا لنا أنهما لم يتخطا حدودهما، ولا حاجة لاعتقالهما.

«سوف نتغاضى عن الأمر هذه المرة.»

مضينا في طريقنا نمشي على مهلنا في الشارع مسافة ثلاثة صفوف من البيوت تقريباً، ثم انعطفنا عند ناصية الشارع، وبدأنا نضحك بشكل هستيري.

«لقد فعلناها! لقد أخفنا رجلين بالغين، واستمعا لأوامر شرطيتين!»

خلال مدة تدريبي لم أقل كلمة واحدة لعائتي عما كنت أفعل، فقد كنت متأكدة أنهم لن يوافقوا، وأن والديّ على الأرجح سوف يمنعاني من الاستمرار، وكنت أيضاً أكذب حول حضوري مدرسة السكيرتارية النهار كله؛ لذا كان سيجب علي تفسير ذلك أيضاً. ساعدتني منيرة على الاحتفاظ بالسر، فبعد أن كاد يغمى عليها خلال أول زيارة للمخفر قررت عدم الانضمام للشرطة؛ لذلك بقيت منيرة في المركز، وكانت إذا حضر أي أحد من عائلتي للمركز في أثناء وجودي في مخفر الشرطة تختلق الأعدار مبررة غيابي عن الحصة. وقامت معلمتي، الأנסة وفاء، بحمايتنا أيضاً، فقد شجعتنا على الاستمرار في التدريب، وكانت أحياناً تتستر على غيابي عن الصف.

لم يشك أحد في الأمر إلى أن كادت أخت زوج أختي سميرة (إنعام) تعترف بذلك دون قصد. ففي إحدى الأمسيات كنت أنا وسميرة وإنعام (التي تعرفت إليها في المدرسة المتوسطة) جالسات في غرفة المعيشة، عندما سمعنا أحدهم يقرع الباب بشدة، فطلبت مني أمي أن أفتح الباب.

وفجأة قالت إنعام دون تفكير: «ربما الشرطة على الباب، ربما حصل حادث، ويحتاجون إلى فدوى».

فوجئت أُمي، وسألت حائرة: «لِمَ سيحتاجون إلى فدوى؟».

قررت سميرة وإنعام فجأة أن تعودا لمنزليهما قلقتين من ردة فعل أُمي، عندما علمت أنني انضمت إلى قوات الشرطة. فسارعت أنا لاختلاق عذر معقول، لكن لم يخطر في بالي أي عذر إلا أن أقول لها: إن الشرطة أتوا إلى المركز ليعلمونا الإسعافات الأولية.

لم تصدقني أُمي، وقررت أن ترافقني إلى المركز في اليوم المقبل، وهناك سألت الأنسة وفاء عن تحصيلي الدراسي إذا كنت أحضر الحصة طوال النهار، ولحسن حظي طمأنت الأنسة وفاء أُمي بأنني مجتهدة، ولم أتغيب يوماً عن الحصة، اقتنعت أُمي بهذا الجواب، ولم تراجعني في الأمر ثانية. وهكذا أنهيت تدريبي، وأصبحت رسمياً شرطية، لقد كنت فخورة بهذا الإنجاز، لكنني كنت متأكدة أنه لن يدوم. فعلى الرغم من أنني نجوت من أن أهلي يكتشفون سري هذه المرة، لكنني عرفت أنه لا يمكنني الاستمرار في حيلتي هذه للأبد. فقد كان والداي يتوقعان مني أن أجد وظيفة، لكن ما كنا ليسمحا لي بالعمل في قوات الشرطة؛ لذلك وبكل أسف استقلت من الشرطة قبل أن تتاح لي فرصة العمل فيها. حصلت على شهادتي، وبدأت أبحث عن عمل سكرتيرة.

أنهى أحمد تدريبه العسكري في وقت تخرجي نفسه تقريباً، ورجع إلى عمّان لاستراحة قصيرة، وفي أحد الأيام مر أحمد بمنزلنا، وصفر لي، رأيتُه من نافذة غرفة المعيشة، وابتسمت، وما لبثت أن ارتديت حجابي، وركضت إلى منزل منيرة.

«منيرة! أحمد هنا! تعالي لنذهب!».

أخبرنا أُمي وأُمها بأننا ذاهبتان لنتمشي، ثم اتجهنا إلى مكان لقائنا القديم. لكن هذه المرة لم أقدر على الانتظار حتى أصل إلى الصخرة، وأتحدث إلى أحمد، فناديت عليه، وأتى ليتحدث معي في منتصف الشارع، لم أنتبه في البداية إلى أن إحدى جارات منيرة كانت جالسة في غرفة معيشتها تراقبنا من خلال نافذتها. رأتها منيرة، وجذبت كمي موميئة برأسها في اتجاه جارتها، فأنزلت الجارة الستارة بسرعة.

«أعتقد أنها رأتك يا فدوى، أنا لا أحب هذه المرأة، وأعتقد أنها ستخبر الجميع».

لقد كنت سعيدة جداً برؤية أحمد، لدرجة أنني نسيت كلياً أنني كنت واقفة وسط الشارع، حيث يمكن للناس رؤيتنا؛ لذلك توقفنا عن الحديث إلى أن وصلنا الصخرة.

«لقد اشتقت إليك كثيراً يا أحمد!».

«وأنا أيضاً اشتقت إليك كثيراً! عندما أتيت إلى المعسكر لم أكن الوحيد الذي فوجئ. فقد سألتني الحراس إن كنتِ خطيبتي، لكنني ابتسمت، ولم أقل شيئاً، وعندما دخلت إلى ثكنتي كنت أغني، ما جعل جميع الجنود يسألون إن كنت قد تسلمت رسالة من حبيبتي، فقلت لهم: إنك أتيت شخصياً إلى هنا، لقد أصابهم ذلك بالذهول. وفي وقت فراغي كنت أطبل على الخزانة، وأغني لك».

كلامه جعلني أتوهج فخرًا.

«فدوى، أريد أن أطلب منك أن تلاقيني في غرفتي، تلك التي على سطح منزل والدي. أرجوك ثقي بي، فأنا أحبك، ولن أؤذيك أبداً».

«ربما، دعني أفكر في الموضوع كم من الوقت ستبقى هنا؟».

«ثلاثة أسابيع، بعد ذلك سأعود إلى المعسكر؛ لذلك أريد أن أراك قدر الإمكان قبل أن أغادر».

«حسنًا، سأقابلك المرة المقبلة في غرفتك».

بعد أسابيع عدة كنت في منزل منيرة، وفجأة بينما كنا نتحدث سمعنا أحدهم يطرق الباب. لقد كانت تلك جارة منيرة التي رأته في أتني أتحدث مع أحمد في، كانت تقريباً في العقد الأربعين من عمرها في ذلك الحين. لم تقل شيئاً لمنيرة، بل اقتربت مني، وأخبرتني بأنها تعرف ما بيني وبين أحمد.

فقالت: «فدوى، لقد كنت مع أحمد في إحدى الليالي، ولديه صور لي، هل يمكنك أن تحضري هذه الصور لي؟».

لم أطرح أي أسئلة، وأخبرتها بأنني سأسأله عن تلك الصور، عندما أراه ثانية. لم أصدق ما قالته، فسألت نفسي: لم يفعل أحمد ذلك؟ فهو يحبني، وافقتني منيرة الرأي، لكن شيء ما جعلها مترددة قليلاً.

«ربما عليك يا فدوى، أن تخبري أحمد عما قالته هذه المرأة، فقط اسأليه ماذا حدث، فعلى الأقل ستعرفين الحقيقة منه».

فقلت: «لكن ماذا لو خسرت؟ ماذا لو كان هذا صحيحاً؟ لا يمكنني مجرد التفكير في إمكانية حدوث ذلك، رجعت للمنزل محاولة التفكير في طريقة لحل هذه المشكلة دون أن أخسر أحمد، فإذا اتضح أن ذلك صحيح يمكنني أن أسامحه هذه المرة فقط، وسوف أنسى الموضوع إذا وعدني بالأخبار ذلك مجدداً.

عندما غادر أحمد المعسكر في إجازة للمرة الثانية ذهبت لأقابه في منزل والديه، في غرفته الصغيرة قليلة الأثاث، وفي طريقي لغرفته شعرت بالقوة والثقة، متأكدة أنني سوف أتدبر أمري. التزمت الصمت في البداية، فعلى الرغم من أنني أردت أن أسأله إلا أنني لم أعرف كيف، لكن في النهاية فتحت فمي، ونطقت السؤال المؤلم، وعندما سألته عن الصور؟ سكت لحظة، ثم قال:

«فدوى، أريد أن أخبرك بكل صدق بما حدث حتى تفهمي الموضوع. هل يمكنني أن أخبرك بشيء من الصعب عليك سماعه؟».

هزرت رأسي موافقة، وحضرت نفسي لما سيقوله.

«لقد أتت إلى غرفتي، ثم نزعرت ملابسها، واستلقت على السرير، وأخبرتني بأنها في حاجة إلى المال، كنت خائفاً من أنها ستخبر أحداً ما لاحقاً عما فعلناه، وتلقي باللوم علي، لذلك التقت صوراً لها، وهي عارية في السرير، واحتفظت بهذه الصور؛ لأتأكد من أنها لن تقول شيئاً، هل تصدقينني يا فدوى؟».

استمعت بصمت لقصة أحمد، لقد أحببته كثيراً، ولم أستطع أن أتخلى عن خمس سنوات من الحب، بسبب هذا فكرت لحظة، ثم أجبته:

«نعم، أنا أصدقك يا أحمد».

بعد ذلك عاد أحمد إلى المعسكر. لم أسأله ثانية عن جارة ابنة خالتي، فأنا مازلت أحبه، ولم أرد أن أعرف المزيد عن هذا الأمر، حاولت أن أسترجع مشاعر البهجة والبراءة التي كانت تملؤني، لكن ألم خيانتها ازداد في قلبي.

عاد أحمد بعد مدة من المعسكر، والتقينا مرة أخرى في غرفته الصغيرة. كتب قصائد، وغنى لي أغاني، ورسم لوحة لي، لقد شعرت برضا عميق عندما كنت أمضي ساعات أتحدث إليه، لكنه ما لبث أن أصبح متململاً.

قام بتحسس طرف حجابي، لكنني أزحت يده بعيداً.

«فدوى، أنت رفيقتي منذ سنين عدة، لكنني لم أرَ شعرك أبداً، هل تستطيعين نزع حجابك مرة واحدة؟».

ابتعدت عنه.

«أريد أن أقبلك يا فدوى».

«لا، لا. أنا لا أرغب في ذلك».

«إن لم تقبليني، وغادرت غرفتي الآن، فاعتبري علاقتنا قد انتهت».

لم يكن ذاك هو الشخص الذي عرفته كل تلك السنين، الشخص الذي كان دائماً يحترمني، ففي كل مرة أنظر في عينيه كنت أرى الخزي فيهما بسبب ما فعله مع تلك المرأة.

«أرجوك يا أحمد، أرح نفسك إن كنت لا تزال تشعر بالخزي، فأنا سامحتك، ومازلت أريدك أن تبقى على عهدك بالأا تلمسني قبل أن نتزوج. أرجوك لا تجرح مشاعري هكذا، لا تضعني في هذا الموقف الصعب، فأنت تعرف أن هذا لن يحدث، حتى لو كنت أحبك كثيراً».

«حسناً إذن، هذه هي النهاية بيننا».

أشحت بوجهي عنه، محاولة كل جهدي ألا أبكي أمامه، وبعد برهة سمعته يرطم صوري التي بحوزته بقوة على الطاولة، التقطتها وأنا أرتعد، وتركت صورته في مكانها.

عندما رجعت للمنزل التقيت منيرة، التي أخذتني تمشي وراء المدرسة.

«توقفي عن البكاء يا فدوى، ليست تلك نهاية حياتك ستكونين بخير».

عانقتني، ورجعت أنا إلى المنزل غير مقتنعة.

فتحت باب الثلاجة، والتقطت علبتين من الدواء، ثم ابتلعت ملء يدي أقراصاً صغيرة بيضاء، واستلقيت على فرشتي لأنام، جاءت أمي تبحث عني، ووجدتني في غرفتي فاقدة

الوعي، فبدأت تصرخ ما جعل أخي الأصغر (محمود) يهرع إلى الغرفة، حمل جسدي الواهي، ووضعني على كتفه، وذهب بي مسافة ثلاثة صفوف من البيوت إلى عيادة الطبيب. كان أبي موجوداً في عمّان في ذلك اليوم، وجاء هو وأمي للعيادة.

سحب الدكتور يوسف السموم من معدتي، ووضع قسطرة وريدية في يدي، وعندما أفقت رفضت أن أخبره لماذا تناولت الدواء، في النهاية استسلم، وأخبر والدي بأنني بخير من الناحية الجسدية، لكن يجب أن يأخذاني إلى طبيب نفسي، ثم أعطى والدي اسم طبيب وعنوانه، وهو الدكتور خليل؛ ليساعدني.

وهكذا أخذني والداي في اليوم المقبل لأرى الدكتور خليل، لكنني رفضت التحدث إليهما حتى خلال رحلتنا بسيارة الأجرة إلى عيادة الدكتور خليل، التي استمرت ثلاثين دقيقة، طلب الدكتور خليل من والدي الانتظار في إحدى غرف العيادة؛ ليتحدث معي، وعندما أصبحنا وحدنا أخبرني بأنه لن يقول لوالدي أي شيء أخبره به، لكنني لم أكن متأكدة أنني أثق به؛ لذا بقيت صامتة، ثم أخبرني بأن علينا أن نخلق سبباً نخبر به والدي، لذلك قررنا أن نخبرهما بأنني كنت أشعر بالإجهاد؛ لعدم عثوري على عمل. وعندما رجع والداي للعيادة كان على الدكتور خليل أن يقنعهما بأنه بالكاد جعلني أتحدث؛ حتى لا يشعر بأنه يخفي شيئاً عنهما. دخل والداي غرفة المعاينة، وانتظرا، ثم قام الدكتور خليل بتشغيل آلة، وتظاهر بأنه يعطي صعقة كهربائية.

«والآن يا فدوى، ألا تريدان التحدث معي؟ ما الذي كان يزعجك كثيراً؟».

ابتسمت ابتسامة واهنة، وأجبتة: «إنني قلقة من عدم العثور على وظيفة».

قدم الدكتور خليل حلاً.

«في الحقيقة أنا أبحث عن سكرتيرة، وإن كنتما توافقان يمكن لفدوى أن تأتي للعمل عندي، فهي لن تشعر بالتعاسة، ويمكنني أن أعتني بها».

وافق والداي، ولكن يجب أبقى في المنزل، وأستريح مدة قصيرة، وبعدها سوف يسمحان لي بالعمل عند الدكتور خليل. وعندما رجعنا للمنزل أخذت أمي كل الدواء من الثلاجة، وأخفته في مكان ما احتياطاً، وطلبت من والدي وأخي أن يتركوني وحدي في الغرفة، ثم سحبت دفتر يومياتي، وقرأت الصفحات الكثيرة التي كتبتها خلال علاقتي بأحمد منذ أول مرة التقيته،

وكان الكثير من صفحات ذلك الدفتر مليئة بكلمات الحب والفرح، لكن حان الوقت الآن لكتابة كلمات حزينة، كتبت كلمات أغنية حزينة لأم كلثوم تغني فيها عن ألم خيانة الحبيب، ولم تجد المغنية عزاءً إلا معرفتها بأن حبيبها سوف يندم للأبد على فقدانها.

أخرجني طرقٌ على الباب من دوامة اكتئابي. دخلت منيرة لغرفتي، وأخذت دفتر اليوميات من يدي لتقرأ ماذا كتبت.

«فدوى، سوف أبحث عن أحمد، وأخبره بأنك مريضة، فعليه أن يفعل شيئاً».

«لا، يا منيرة، لا تبحثي عنه، فلست أنا من قطع علاقتنا، إنه لا يرغب في أن يكون قريني بعد الآن. كل ما أحتاج إليه الآن هو الوقت لأنسى خسارتي، وأجد وظيفة حتى أستطيع أن أفق على قدمي من جديد، هل سمعت أغنية لأم كلثوم؟ أغنية حزينة عن معاناة الخيانة، إنها تصدح في رأسي طوال اليوم، قدمت المغنية قلبها لحبيبها، لكنه لم يقبل علاقة عفيفة، وعلى الرغم من خيانتها لها لكنها لم تتخلَّ عن احترامها لنفسها».

«إنها أغنية جميلة يا فدوى».

عانقتني، وطمأننتي بأنني سأجد شخصاً آخر. لم أكن متأكدة من ذلك، لكن كان علي فعل شيء يشغلني عن التفكير في أحمد؛ لذا قررت أن أقبل الوظيفة التي عرضها علي الدكتور خليل. دقت أجراس الرحيل، وفيت لك يوم نسيت الوفا، وحلفت لك لن أنساك، وبنيت لك في القلب بيتاً سميته الوفا، وأهديت لك قلباً بالود وافٍ، ولكنك خنت عهد الوفا، للطبيب طيب وللمواقف رجال.

عندما بدأت العمل عند الدكتور خليل كنت مسؤولة عن إعطاء المواعيد، وكانت علاقتي جيدة مع مرضاه، على الرغم من أنني لم أتكلم كثيراً. لقد كنت خائفة من أن أقول له الكثير، وأن أعلمه بما كنت أفكر فعلاً، وماذا كان يجري في حياتي؛ لأنه كان رجلاً، ويمكن أن يخبر والدي.

كانت تصرفات الدكتور غريبة قليلاً، لكننا عملنا جيداً مع بعض في أغلب الأحيان، وتعلمت الكثير في أثناء عملي في عيادته، وفي ذلك الوقت لم تمتلك العيادات الصغيرة في تلك المنطقة المال الكافي لتوظيف ممرضات مدربات رسمياً؛ لذلك قاموا بتدريب السكرتيرات لتولي مهام الممرضات. علمني الدكتور خليل كيف أنفذ فحص كهربية القلب، وكيف أغرز

الحقن، لكنني كنت خائفة من إدخال قطعة معدن في ذراع المرضى، لذلك أعطاني دمية لأتدرب عليها، إلى أن أتعود على الأمر.

كنت أتقاضى ستين ديناراً في الشهر، أي ما يعادل خمسين دولاراً أمريكياً. لم يكن راتباً كبيراً، لكنني شعرت بالفنى؛ لأنني أكسب مالي الخاص، وأقدر على شراء ملابس جميلة، ولأنني كنت لا أزال أعيش في منزل والدي لم تكن لدي مصاريف كثيرة، ومن حين لآخر عندما يعجب أحد المرضى بمهاراتي في تنفيذ فحص كهربية القلب وغرز الحقن كان يعطيني بقشيشاً. ففي إحدى المرات جاء رجل من عُمان، وأعطاني عشرة دنانير، أي ما يعادل ثمانية دولارات أمريكية! كان بعض المرضى الذين قابلتهم يخيفونني قليلاً. ففي إحدى المرات جلست امرأة في قاعة الانتظار مع زوجها، وظلت ممسكة بذراعه، وتقول مرعوبة: إن هناك رجلاً ينظر إليّها من خلال النافذة، التفت حولي قليلاً لألقي نظرة على ذلك الرجل، كاتمة نفسياً ومحضرة نفسي ألا أصرخ عندما أراه، لكنني لم أر أحداً، عندما نظرت من النافذة. أخبرني زوجها بأنها تعاني هلوسات، فأحضرها ليراها الدكتور خليل؛ لأنها كانت تسمع أصواتاً تخبرها بأن تحرق المنزل، وكانت تطيع هذه الأصوات. أما أنا فلم أتعرض لأي مرض عقلي في طور بلوغي، ولم أسمع بهذه الأمور من قبل، لكنني عاملتها بطيبة، وأحضرت لها كأساً من الماء، وعندما أتيا للعيادة في المرة الثانية أحضرا لي زهوراً لأضعها على مكثبي.

خلال مدة عملي عند الدكتور خليل تعرفت إلى فتاتين كانتا تعملان في عيادتين في المبنى نفسه: إحداهما تدعى (رائدة) كانت تعمل عند طبيب نسائي، والأخرى تدعى (حليمة) كانت تعمل عند طبيب أسنان. أما منيرة فقد عثرت على وظيفة في مركز الأزياء الحديثة. وكنا نحن الأربعة نتقابل كل يوم لتناول طعام الغداء. بدأت أستمتع بحياتي بوصفي فتاة عذبة، لكن بعد بضعة أشهر من بدء عملي أخبرني الدكتور خليل بأنه سينقل عيادته إلى مدينة أخرى؛ لذلك كان علي العثور على وظيفة أخرى.

بدا والداي غير مهتمين بالمرة، عندما أخبرتهما بأنني سأترك عملي عما قريب، فقد اتضح أنهما قررا أنه قد حان الوقت لكي أتزوج، وأستقر. كان الزواج المرتب مسبقاً لا يزال شائعاً في مجتمعي، فعند المسلمين والعرب كانت تلك العملية تقتضي أن يلتقي الآباء، ويسألوا بعضهما عن شخصية الزوج أو الزوجة المحتملة وتعليمهما، وكم من المال يملكان، وبعد حسم

هذه الأمور يمكنهما أن يتقابلا، لكن بحضور الوالدين طبعًا، وأكدت لي أمي أنه ليس من الضروري أن أحب زوجي قبل أن أتزوجه، فالحب سوف يكبر بيننا مع الوقت.

كانت إحدى خالاتي تلحّ على أمي منذ أن كنت في الثالثة عشرة من عمري بأن تزوجني لابنها، ابن خالتي (مروان). لكن لم تخضع أمي لطلبات خالتي، وكانت تخبرها بأنها لن تسمح لي بالزواج قبل أن أنهى دراستي الثانوية على الأقل، وإذا بقيت عزبة بعد إنهائي الدراسة فسوف تفكر في الموضوع.

والآن أنهيت دراستي الثانوية، وأنهيت دراستي في السكرتارية، وعملت بضعة شهور، فقد حان الوقت لعقد اتفاق زواجي. وكان والداي ووالدا مروان سعداء بفكرة تزويجنا؛ لأننا كنا أقارب من جهة الأم والأب. فقد كانت أمي وأمه أختين، وكان أبوه ابن عمي (الزوجة الثانية لوالد أبي كانت أم أبي مروان) لكنني كنت الوحيدة في العائلة غير سعيدة بهذه الخطة. فعلى الرغم من أن أحمد جرح مشاعري عميقًا، لكنني كنت أفكر فيه طوال الوقت، لقد أردت بشدة أن أقطع علاقتي مع مروان، لكنني عرفت أن هذا سيتسبب في شرخ في عائلتي، فمن المحتمل ألا ترى أمي أخواتها مرة أخرى بسببي؛ لذلك قررت في النهاية أن أرضى بخبطته في سبيل عائلتي.

وبينما كنت أنتظر لحين زواجي قبلت وظيفة سكرتيرة في شركة عقارات، كانت تقع على بعد خمسة صفوف من البيوت عن مكان عملي السابق، حيث كنت أذهب لتناول الغداء كل يوم مع رائدة وحليمة ومنيرة. أردت أن أعمل لحين موعد زواجي، ثم أبقى في المنزل لأنجب الأطفال، وفي غضون ذلك شجعتني أمي على ادخار نقودي لأشتري بعض الحلي الذهبية. فقد اعتادت النساء على ارتداء الذهب، لكن أمي أرادتني أن أمتلك شيئًا يمكن أن أبيعها في حال أصبحت عاطلة عن العمل، أو احتجت إلى المال لحالة طارئة، ولم يكن علي أن أخبر مروان بذلك.

وفي النهاية قطعت عائلتي علاقتي بمروان، فبعد أن مرت بضعة أشهر على خطبتنا أعطاني مروان مهري الذي اتفقت عليه عائلتنا، واشترى لي بعض الحلي الذهبية والملابس والبطانيات لمنزلنا المستقبلي. لكن كان في ذمته جزء من المهر لم يدفعه، لذلك ذهب أخي الأكبر ليطالبه بالمال، فرفض أن يعطيني إياه. وتسبب هذا في القطيعة بين أمي وأختها، لدرجة أن خالتي في أحد الأيام اتصلت بي في مكان عملي، وأخبرتني بأنه إذا بقيت أستمع إلى كلام أمي فسوف أخسر مروان. لكنني طلبت منها، متظاهرة بالكآبة وخيبة الأمل أن تتفهم

أن علي طاعة كلام والديّ، وبهذه البساطة انتهت خطبتي بمروان.

بعد أن انتهت خطبتي عادت الأمور لما كانت عليه في السابق، على الأقل مدة قصيرة. وعلى الرغم من أن عملي الجديد يبعد خمسة صفوف من البيوت عن المكان الذي تعمل فيه صديقاتي، إلا أننا كنا نجتمع كل يوم لتناول الغداء. وكنا نتبادل، يوم أذهب إليهم في مكان عملهم ويوم يأتون إلي. أصبح المشي إلى هناك روتينياً، لدرجة أنني بعد مدة بالكاد لاحظت البيئة حولي. فقد كان الطريق إلى صديقاتي مليئاً بنوافذ عرض كبيرة فيها فساتين وأوشحة وساعات، لكنني لم أَرَ إلا الرصيف يتحرك تحت قدمي، ويحملني إلى صديقاتي، كنت سعيدة بحياتي كما كانت، لكن لم يكن مقدراً لها أن تستمر على هذا المنوال. فقد كان والداي متلهفين على تزويجي، إذ لا أزال في ذروة جمالي الجسدي.

